تفسير إبن كثير

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك ، كما قال الإمام أحمد :حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن جامع بن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول االله ، صلى االله عليه وسلم : " اقبلوا البشرى يا بني تميم " . قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . قال : " اقبلوا البشرى يا أهل اليمن " . قالوا : قد قبلنا ، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : " كان االله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء " . قال : فأتاني آت فقال : يا عمران ، انحلت ناقتك من عقالها . قال : فخرجت في إثرها ، فلا أدري ما كان بعدي .وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة ; فمنها : قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال : " كان االله

ولم يكن شيء قبله - وفي رواية : غيره ، وفي رواية : معه - وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض " .وفي صحيح مسلم ، عن عبد االله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول االله ، صلى االله عليه وسلم : " إن االله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء " .وقال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي االله عنه - أن رسول االله - صلى االله عليه وسلم - قال : " قال االله عز وجل : أنفق أنفق عليك " . وقال : " يد االله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار " وقال " أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع " .وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن يعلى بن عطاء ، عن وكيع بن عدس ، عن عمه أبي رزين - واسمه لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلي - قال : قلت : يا رسول االله ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : " كان في عماء ، ما تحته هواء وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك " .وقد رواه الترمذي في التفسير ، وابن ماجه

في السنن من حديث يزيد بن هارون به وقال الترمذي : هذا حديث حسن .وقال مجاهد : (وكان عرشه على الماء) قبل أن يخلق شيئا . وكذا قال وهب بن منبه ، وضمرة بن حبيب ، وقاله قتادة ، وابن جرير ، وغير واحد .وقال قتادة في قوله : (وكان عرشه على الماء) ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض .وقال الربيع بن أنس : (وكان عرشه على الماء) فلما خلق السموات والأرض ، قسم ذلك الماء قسمين ، فجعل نصفا تحت العرش ، وهو البحر المسجور .وقال ابن عباس : إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه .وقال إسماعيل بن أبي خالد ، سمعت سعدا الطائي يقول : العرش ياقوتة حمراء .وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى : (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) فكان كما وصف نفسه تعالى ، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش ، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام ، والعزة والسلطان ، والملك والقدرة ، والحلم والعلم ، والرحمة والنعمة ، الفعال لما يريد .وقال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قول االله : (وكان عرشه على الماء) على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح .وقوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن

عملا) أي : خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له ، ولم يخلق ذلك عبثا ، كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ، وقال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى االله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) [المؤمنون : 115 ، 116] ، وقال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات : 56] .وقوله : (ليبلوكم) أي : ليختبركم (أيكم أحسن عملا) ولم يقل : أكثر عملا بل (أحسن عملا) ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا الله عز وجل ، على شريعة رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط .وقوله : (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن االله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، مع أنهم يعلمون أن االله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض ، [كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن االله) [الزخرف : 87] ، (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض] وسخر الشمس والقمر

ليقولن االله) [العنكبوت : 61] ، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة ، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة ، كما قال تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) [الروم : 27] ، وقال تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) [لقمان : 28] وقولهم : (إن هذا إلا سحر مبين) أي : يقولون كفرا وعنادا ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته ، فهو يتبعك على ما تقول .